تقريب كتاب

المرأة أم الدنيا

تأليف

علي أحمد الشهيدي

قرّبه وهذّبه وأعتنى به أحد طلبة العلم

أضواء السلف

تقريب كتاب

المرأة أم الدنيا

تأليف

علي أحمد الشهيدي

قرّبه وهذّبه واعتنى به أحد طلبة العلم

أضواء السلف

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

مكتبة أضواء السلف - لصاحبها علي المزني

الرياض - شارع سعد بن أبي وقاص - بجوار بنده - ص.ب ١٣١٨٩٢ - الرمز ١١٧١١

تلفون وفاكس: ٢٣٢١٠٤٥ - محمول ٥٥٤٩٤٣٨٥.

الموزعون المعتمدون لمنشوراتنا

المملكة العربية السعودية: مؤسسة الجريسي. ت: ٤٠٢٢٥٦٤

مصر: مكتبة الإمام البخاري بالإسماعيلية - ت ٣٤٣٧٤٣ / ٠٦٤

باقي الدول: دار ابن حزم - بيروت - ت ٧٠١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أنبيائه والمرسلين. أما بعد ﴿فالحقيقة بنت البحث﴾ ونتيجة البحث هى العلم بحقائق الامور التى فطر الانسان من عهد نشأته على السعى وراءها فكم بسببه ظهرت مكتشفاتٌ بعضهاعاد على الورى بالخير والسعادة والبعض جلب عليهم الذل والهوان.

وما من موضوع يطرح على الهيئة الاجتماعية للبحث له، رغبةً فى كشف الغطاء عن خبائه خيراً كان أوشرا إلا وتسيل فيه الافكار سيل العرِم فلا يصدّ تيارها عن المسير الا الفكر الذى يكون أساسه التعقل واركانه البراهين الثابتة الحقيقية إذ يتغلب على ماعداه من الافكار فيمحوها كما يمحو الله الليل بالنهار.

وما من زمانٍ إلا وله دولةٌ من رجالٍ ينتهزون فرصة المباحثات علمية كانت أو أدبية فيقدحون منهم الافكار ويسنون لها الاقلام ويملأون بها صحف الاخبار بقدر ما هم عليه من التقدم فى العلوم والمعارف والتجارب خصوصاً إذا كان للاديان فيه أثرٌ ففريق يشط عن الصواب وفريق يهتدى إلى سواء السبيل كما حصل ذلك فى البحث عن أحوال المرأة من أمد غير بعيد. ذلك الامر الذى ألفت الانظار. وشعل الافكار. فانتصب له ميدان الاقلام بين الصغير والكبير. وقامت قيامة التحرير. واحتدم الجدال .بسبب ما أوجدوه فى تحرير هذه المرأة المسكينة من الاشكال.

أجل قد انتصب ميدان الاقلام وقامت قيامة التحرير فى التحرير المطلوب .. فانقسم الجمع إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: نظر للمرأة من عهد الخليقة فوجدها كآلة صماء في يد الرجل يديرها كيف يشاء. فاستنتج منه أنها لاتساويه جسماً وعقلاً وعزماً وحزماً. وقد ساعده على ذلك ماورد فى بعض الاديان وعززته العقلاء وأكدته فلاسفة الازمنة الغابرة والحاضرة. خصوصاً وان الاختبار القديم والحديث قد ثبت ذلك فى مخيلة هذا القسم فاندفع بعض افراده لاتخاذه ذريعةً لمعاملة المرأة بالاهانة والاحتقار على الدوام.

والقسم الثاني: نظر للمرأة فوجدها محط الاهانة ومهبط الازدراء من قديم الزمان . فانبعثت بفؤاده الرحمة والرأفة وتضاعف لديه الحنان . خصوصاً عندما رأى أنها كانت فى الازمنة الخالية تارةً تضرب بالسياط حتى الممات وأخرى تعاقب بالوأد وهى على قيد الحياة وطوراً تعذب بالحرق أو ماشاكله من اشنع الحالات. كل ذلك قد حمله على أن يقوم على قدمٍ وساقٍ وينادى بمساواتها للرجل وتحريرها تحريراً مطلقاً مذيعاً ذلك فى كل مكان. مثبتاً إنه واياها فى الهيئة الاجتماعية سيان. لايتميز أحدهما عن الآخر فى أيّ شيء كان . وقد بنى ذلك على كونهما خلقا متساويين فى الهيئة الظاهرية لاميز بينهما حتى يعامل أحدهما الآخر بسلاح الاستبداد. مشيرا بذلك لما يأتيه الرجل من قتل حرية المرأة: كأن يسعى فى الحجر عليها والغلوّ فى احتجابها عن الاعين وتسفيه ما يبدو منها من الافكار.

هذا القسم تمسك بتلك المبادئ تمسكاً قولياً. وانتبذ لنفسه مكاناً قصياً .

وزاده رسوخاً على رسوخ ماهو منغمس فيه من لهو ولعب ومايتمتع به ناظره فى كافة المجتمعات آناء اللّيل واطراف النهار من أوجه مقمرة واشكال مفرحة ومحادثات منعشة تساعده على تلطيف معيشته فى هذه الحياة الدنيا. كل ذلك وهومتلاه عن المصائب والشبه التى التصقت به ومتغاض عما تولد ويتولد منها فى مستقبل الايام. ولله فى خلقه شؤون.

حقاً إن هذا القسم قد قويت جرثومته. وعلت فى الخافقين صولته. وتمسكت به شيعته . وتعاضدت عليه الآحاد. واندفعت إليه الافراد.اندفاعاً لم يتزايد الا بين النشأة الحديثة الآن ولعمرى فهي نشأة الصبا والشباب التى يقودها الطيش ويحدو بها الفراغ.

ان الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء ايُّ مفسده

وقد زعم أنصار هذا القسم إنه إذا كان لما تقوّله القسم الاول ادنى صحة وانهم ليسوا على حقّ فما بالهم متفقون قلباً وقالباً على تحرير المرأة وجعلها كالرجل مطلقة الحرية فضلا عن أن هذا الأمر بينهم آخذٌ فى الازدياد دون أن يبدولهم ما يثبط منهم الهمم.

وقدا ستشهدوا بمثل هذه الاستشهادات التى صارت تتقوّى لديهم كلما رأوا من القسم الاول صداً وصفحاً فيعضوا على مذهبهم بالنواجذ. مجتهدين فى نشره واذاعته بكل مالديهم من الوسائل.

والقسم الثالث: وقف بين هذين القسمين لايدرى اين يذهب ولامع اىّ قسم يسير. فبينما نراه مسوقاً للقسم الأول بمافطر عليه وحكمت به الطبيعة وجاءت به الاديان ونادت به اقلام العلماء والفلاسفة المجرّبين نراه

متأثـراً بتلك العـوامل النفسـانية من حبّ اللـهو واللعب والـتمتع بمجـالسة الجنس اللطيف فيفعل ذلك فى نفسه كـما تفعل الرطوبة بالمرآة المجلوّة فينصدّ عما يريد . وهناك يقف باهتاً لهـذه الحالة حائرا بين هذا وذاك تتنازعه الافكار وتكتنفه الـهواجس من كل صوبٍ كأنه مذبذبٌ بين الموقـنين والشالين لا الى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . أو

كريشةٍ فى مهبّ الريح ساقطة لاتستقرُّ على حالٍ من القلق

فانظـر لهذا الانقسـام أَيها القارئ اذ بـه اصبح امر المرأة بـيننا من الأهـمية بمكان. وقدوهم بعـضهم زاعماً إن هذا أمر جديد لم يـدر فى خلد الانسان الا فى هـذه الايام بناء عـلى ما اقتـضاه التمـدن الحديث الذى وجـد الآن مع أن الامر بالعكس . اذ كـم من رجالٍ مختلفى الشعوب ومتـفاوتى الدرجات فى العلم والمـعرفة والاختبار من قديم الـزمان قد شمروا عن ساعـد الجدّ وبذلوا النفس والنفيس فبروا اقلامهم وأفنـوا مدادهم واستنزفوا افكارهم فى نصرة هذا المشروع فكانوا فـيه والزمان على طرَفيْ نقيض . يهـدم ما شيدوا ويعيدوا ماهدم حتى تـغلب عليهم فخاب أملـهم وأمسى تعبهم فى خـبر كان بعد أن غرّتهم زخارف الايام فكانوا والمرأة فى تيه طـويل حتى ارتفع اللثام عن محيا الحقيقة التى اسفرت عن أحقية رجوع المرأة إلى سنن الفطرة كما سيتضح لك ذلك باجلى برهانٍ عند التكلم على المرأة إن شاء الله.

قلنا إن البحث فى امر المرأة قد شغل الافكار واستفزَّ الاقلام . ولعمر الحق إن الموضوع له مـن الأهمية العظـمى مايشغل فكـر كل عاقل اذ يتوقـف عليه الوصولُ إلى حقيقة انـتظام العمران كما لايخفى على كل مـطلعٍ خبير. وهذا

مما يفرض على الانسان الخوض فى عبابه. والبحث عن حقيقة مابه. عله يمحى غشاوة الجهل عن يصيرة من خدعتهم زخارف الدنيا فحادوا عن الطريق المستقيم.

ودفعتنى الغيرة للدخول فى ميدانه عسانى اقوم بخدمة الانسانية المفروضة على كل إنسان وكان من ثمارها هذا الكتاب الموسوم«المرأة أم الدنيا».

هذا وقد ساعدنى الله على إنجازه فقمت بما وعدت وها أنا الآن أقدمه لبنى آدم وحواء على الإطلاق ولم أخصصه لامة أو أممٍ دون آخرين لأننى قد سلكت فيه طريق التعميم لاطريق التخصيص. بمعنى أنَّ ما دُون به يشمل المرأة على وجه العموم وقد تخيرت لك خلاصة كل ماقيل فى هذا الموضوع وتوخيت أصح الأقوال ولم أبخل عليك بتعريف مجهولها وبيان احاجيها. وبالجملة فاننى لم اكتب مع تيار الاغراض. ولم أمل مع هوى الجهل الذى هو أشدّ الامراض. حتى جاء الكتاب بحمد الله مرآةً تمثل وجه الحقائق امام كل إنسان وجعلته سبع فصول جاءت على النحو التالى:ـ

الفصل الأول: المرأة من عهد الخليفة حتى حصول التفرق.

الفصل الثانى: المرأة وحالتها بعد التفرق.

الفصل الثالث: الاستدلالات النظرية والعقلية على عدم مساواتها للرجل.

الفصل الرابع: المرأة والحجاب.

الفصل الخامس: التمدن والاختلاط

الفصل السادس: قول صاحب الدار

الفصل السابع: حسن الختام

وسلكت فيه مسلكاً سهل المراس مؤسساً على آيات بينات ومشيداً بالصدق في الرويه. وموشى بالافكار النقية. وبالاختصار فانه موضوع في قالب يساعدني على أن اقدمه هديةً لكم يابني آدم وحواء ذكوراً كنتم اوإناثاً علّ الّذي حاد منكم عن جادة الحق ينثني فيعود للصواب وما أريد أن اخالف مشرب كلّ منكم إن اريد الا الاصلاح ما استطعت وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

علي أحمد الشهيدي

الفصل الأول

المرأة من عهد الخليقة حتى حصول التفرق

المرأة ـ المرأة مخلوق لطيف بل إنسان ظريف. ومع ذلك فوظيفتها فى الهيئة الاجتماعية سامية جداً اذ خصصتها الحكمة الالهية بالعناية بالنسل وتربيته الأولى والقيام بشطر العمل الخاص بها فى هذه الحياة الدنيا. وقد افرغها الله فى قالب مناسب لتلك الوظيفة قضى بمخالفتها للرجل جسماً وعقلاً وحالةً وشكلاً كما سنبرهن على ذلك إن شاء الله.

قلنا إنها مخلوق لطيف. لانها جمعت فاوعت من حسن الرقة وجمال الخلقة والجاذبية الطبيعية وسرعة التأثر والاحساس كما اشار بذلك نبينا محمدﷺ إذ قال عند وصايته عليها:« رفقاً بالقوارير» . مشبهاً المرأة بالزجاج الذى هو فى الحقيقة لطيفٌ رقيق سريع التأثر.

وقد فطن الغربيون لذلك فاطلقوا عليها«الجنس اللطيف» اوكما قال احد علمائهم الفيلسوف روسيل:«إن الله خلق المرأة للطف والخفة ....».

خلقها ـ لما أن خلق الله آدم أنزله المنزلة العليا وامر ملائكته أن تسجد له فسجدت كلهم اجمعون الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين لمن خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون.وكانت نتيجة ذلك أن طرده الله وسلبه ماكان له من المكانة بين الملائكة ثم دعى عليه باللعنة إلى يوم الدين. أما آدم فقد اسكنه الله الجنة وكان يمشى بين اشجارها وحيداً ليس له أنيس ولاجليس خلافاً للحيوانات والطيور التى خلقها الله من كل زوجين اثنين. فاراد الله أن يجعل

له زوجاً من جنسه يشاركه الحياة ويشاطره ماهـو فيه من نعيم الجنة فألقى عليه النوم واخذ ضلعاً مـن ضلوع جنبه الايسر واستعاضه بلـحمٍ وخلق منه امرأةً أجلسها بجـانبه حتـى افاق من نومـه ووجدها كمـا خلقت فـعرته الدهـشة والاستغراب وبـادر فاستفسرهـا عن امرها فقالـت:أنا امرأة خلقنـى الله منك لتسكن إليّ وآتيك بزينة الحياة الدنيا واقاسمك المعيشة فى السراء والضراء.

فَعَلَتْ محيـاه علامات السرور وقال لها: حقا أنتِ عظـمٌ من عظامى ولحمٌ من لـحمى خلـقكِ الله من امـرئٍ ولذلك دعيـتِ امرأةً ستـلتصـقى بالـرجل التصـاق الروح بالجسم وتكـونى سببَ ابعـاده عن ابيه وامه وهذا مـا سنه الله لخلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

الزواج ـ وقد سألته الملائكة عن اسمها فقال: «هي» «حواء لانها خلقت منى وانا حيّ» ثم زوجه الله بها فكان ذلك مبدأ لشريعة الزواج بين الانام.

الهبوط من الجنة ـ وقد لبث آدم مع حواء فى الجنة يتمتعان بما فيها مما تشتهيه الانفس وتلذُّ الاعين الا شجرةً عينها الله إليهما ونهاهما عن الأكل منها حيث قـال : ﴿يا آدمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُـكَ الْجَنَّةَ وكُلا مِنْـها رغدا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ، ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذه الشَّجَرَةَ﴾

ولكن لـماحلّ بابلـيس ماحلّ ورأى مـاتمتع به آدم وحـواء من نعيـم الجنة حسدهما عـلى ذلك فانطلق يسعـى فى غضب الله عليهما حـتى إذا تمكن من الوسوسة فـى آذانهما بتزيـينه لهما الأكـل من الشجرة المحرمـة زادهما غروراً

بقوله: ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)﴾. فاثر ذلك على حواء التى هى اقرب الاثنين إلى الانخداع فتأملت للشجرة فاذا هى امامها قد راقت فى عينها واشتهتها نفسها فاقتطفت قليلاً من ثمرها واكلته واقتربت من آدم وزينت له ذلك منبهةً اياه لذاك العزّ الموهوم الذى غرّهما به ابليس محرّضةً له على الأكل منها كما فعلت فأكل ووقع معها فى الخطيئة. ومن ذلك صار للتأثير حظ فى المرأة وللمرأة اهمية فى التأثير على غيرها.

ولما وقعا فى الخطيئة قال الله لهما: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾

فقال آدم: لاجناح عليّ اليوم فالمرأة التى خلقتها لى هى السبب فى ذلك. فقضى عليهما بالهبوط من الجنة للارض حيث دعى على آدم بالتعب والشقاء فيها والاكل منها بعرق جبينه ودعى على الأخرى بمشقات الحمل والولادة وأن تكون خاضعةً لاوامر الأول ونواهيه. ومن ذلك العهد صار الرجال قوّامين على النساء

التعارف ـ ولما أن قضى الله بهبوطهما لارض التعب والشقاء كان اول مقامٍ للاول فى الهند وللثانية فى جده« إحدى بلاد العرب» فأخذ آدم يشقى ويسعى وراء التعارف بها حتى تقابلا على جبل ببلاد العرب وتعارفا معاً ومن ثمّ أطلق على ذاك الجبل اسم «عرفات».

وقد سبق إن المولى سبحانه وتعالى علـم آدم الاسماء كلها وأراه مسمياتها وبعد هبوطه مـن الجنة والتعارف بحواء ألهمـه الله فأرشده لخدمة الارض من حرث وزرعٍ وحصادٍ وكل مستلزمات المعيـشة الدنيوية. اما حواء فكانت قد وفقت للعجين والخبـيز والطبيخ والغزيل والنسيج والخياطـة وبالجملة لعمل الاعمال المـنزلية التى تـناوبتها المرأة بـعدها للآن. وبذلـك تعينت وظيـفة كلّ منهما.







الفصل الثاني

المرأة وحالتها بعد التفرق

لبثت من عهد التفرّق على حالتها الأولى حتى تناسلت وكثر نسلها تحت رئاسة إبراهيم ولوط «ابن اخيه» فحصل نزاع بين عشيرتهما ادّى لانفصالهما عن بعضهما فقطن الاول بعشيرته فى الجهة الغربية من بلاد فلسطين(١) والثانى بعشيرته فى الجهة الشرقية منها وانتشرت ذرّيتهما هناك وكثر اختلاط الجنسين ببعضهما وتناسوا تلك الاخلاق المرضية وخلعوا سربال العوائد الحميدة ومالوا مع الهوى فضلوا عن الطريق المستقيم واتخذوا من دون الله شركاء وعبدوا الاوثان وتلاعبوا بالمرأة تلاعباً ادّاهم للاستبداد بها استبداداً لانظير له فأرسل الله لهم إبراهيم فهداهم قليلاً الا قوم لوطٍ فقد كانوا يأتون الذكران من العالمين ويذرون ما خلق الله لهم من أزواجهم حتى انبنى على ذلك ازدياد كراهيتهم للمرأة. فقاست ما قاسته وقتها من العذاب الاليم حتى أرسل الله لهم لوطاً فوعظ فيهم بالخير ونهاهم عن الشرّ فلم ينتهوا إلى أن تضاعف وعظم ماكانوا فيه من الطغيان فدمر الله قراهم بأن أمطر عليهم حجارةً من سجيلٍ فاهلكهم ذكوراً واناثاً اجمعين الا لوطاً فقد أنجاه الله وقومه الا امرأته قدّرهاً من الهالكين. ولكن الرجل ما زال بعد ذلك يعامل المرأة بالقسوة والاحتقار الزائد اعتقاداً منه أنها دونه وانها منبع الفساد والشرور. ومما يؤيد ذلك ماحصل ايام بنى اسرائيل من أن احد ملوكها المدعو«ابي مالك» لما اراد أن يحرق برج شكيم المتحصنين فيه اعداؤه شجت جمجمته امرأة بحجرٍ من

(١) أعنى الأرض المقدسة.

اعلا ذلك البرج فدعى خادمه وقال له :«اخترط سيفك واقتلني لئلا يقولوا عني قتلته امرأة» فطعنه الخادم بالخنجر طعنةً أودت بحياته.وقد فعل ذلك خوفاً من أن يلحقه العار إذا نسب قتله لامرأة ذلك الأمر الذى يدلّ دلالةً صريحة على أن المرأة كانت فى ايامهم محتقرة للغاية. وقد اخذت هذه المعاملة تشبّ يوماً فيوماً إلى أن جرّهم ذلك لوأدها وهى على قيد الحياة لاسبابٍ ربما كانت أوهى من بيت العنكبوت.

والوأد عندهم كان على أنواع شتى. قال الرازى فى تفسيره:

«ان منهم من كان يحفر لها حفرة يدفنها فيها إلى أن تموت ومنهم من يرميها من مرتفعات عالياتٍ ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها».

.ومن الغريب أنه لما يراد معاملة امرأة بذلك فلا تخفى عليها خافية وربما تسعى له من نفسها مستسلمةً خاضعةً لهذا الذلّ وذاك الهوان. وقد صارت هذه المعاملة عادةً مألوفةً حتى ظهر الإسلام فمحاها من عالم الوجود «تأمل». وقد بلغ من أمر المرأة عندهم «أى قبل الإسلام» أنه عند ما يأتيها المخاض يتوارون ويختفون عن العيون مؤملين أن يكون المولود ذكراً ﴿وإذا بشر احدهم بالانثى ظلّ وجههُ مسودا وهو كظيم﴾

واستشهاداً على هذه الكراهية ماحكى عن احد جاهلية العرب الذى كانت له بنت شبت من عهد الطفولية على محبته محبةً زائدةً وكانت تبالغ على الدوام فى برّه واكرامه حتى كان كلما يعزم على وأدها يرى منها ما يرخى

عزيمته ويثبط همته فيصدّ نفسه عما يريد. ولكنه في ذات يومٍ تغلبت العادة القبيحة عليه فنبذ برّها واكرامها له ووأدها بيديهِ ثم قال مرتجلاً باصغريه:

تهوى حياتي وأهوى موتها أبداً والموت اكرم نزالٍ على الحرمِ

* * *

ولايخفى مافي ذلك من كراهية الرجل للمرأة وقتها وعدم اعتبارها كفؤاً له ولامستحقة لمشاركته في الحياة.

على أن حالة المرأة وإن كانت هكذا في تلك الايام الا أن الله قد شخص لها أناساً ذوي مروءة وانسانيةٍ فأخذوا في صدّ القوم عن تلك العادة القبيحة ومن ضمنهم «زيد بن عمرو،وصعصعة بن ناجية»وخصوصاً الاخير الذي أخذ على نفسه أن يطوف بين القبائل ينهى عن ذلك . وكان يشتري الموءودة ممن لم يطيعوه حتى رفع الوأد عن مئاتٍ من البنات فاكتسب عن الإنسانية الشكر والثناء الجميل. كما وقد افتخر به الفرزدق أحد شعراء الجاهلية «إذ كان صعصعة المذكور جدّا له» وعدَّ فعله هذا من ضمن مآثر آبائه فقال:

وجدّي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأدِ

كل هذه الاعمال جعلت المرأة ضعيفة الارادة مهضومة الحقوق مكسورة الجناح تابعةً للرجل اتباع الأعمى حيث يريد. بمعنى أنها صارت في يد الرجل آلةً صماء. يديرها كيف يشاء . لاتناقشهُ فيما يأتيه الحساب. ولاتظهر له الخطأ من الصواب.

على أنـه لايخفى أن أعـمال الانسان كـمرآة تظهـر غثهُ ثمـينه ومن تـأمل لأعمال المرأة ومـا حصل بسببهـا من عهد الخليـقة لهاله الامر واعتـرف بأنها سبب من أسـباب الشقاء والفـساد والشرور من قديم الـزمان. ولحكم لاول وهلة بأن لاشيء افضل لها من أن تتجرّد من كل شيء يطلق عليه اسم الحرّية حيثٍ يلزم ان تكون مـقيدة بقيودٍ لاخلاص لها منها حتـى الممات. فقدكانت سبباً فى ماحلّ بآدم وبنيه من الشقاء فى هذه الحياة الدنيا حتى انبنى على ذلك أن دعى الله عـليها ضـمناً بان تـكون تحت اوامـر الرجل ونواهـيه كما سـبق الإيضاح . ولايخفى أن ذلك أول باب فتح للسلـطة المطلقة التى نالها الرجل على المرأة.

والمرأة مركـزها أن تكون دون الرجـل لا أهلية لهـا لمشاطرته كـلّ الأعمال الدنيوية لان مشاطـرتها إياه ذلك يحدث عنه الشقاء والـفساد والشرور الذى هو فى الحقيقة يؤيد عدم مساواتها اياه.

ثم خصّ الرجل دون المرأة بالتجنيد للـعسكرية ولو رأى الله أنها كفوء لهذا العمل الشـريف مثل الرجل لما منعهـا عن ذلك. لانه فى الجندية يعـمل بفكره وعينيـه ويديه ورجليه وكـل ذلك على مانرى مـوجود فى المرأة ولكن لمـنعه اياها عن الانتـظام فى الجندية حكمة عالـية نقرأ منها أنها ادنـى من الرجل فى هذه الاوصاف وانها خلقت لوظيفة اخرى لاتتعدّى جدران منزلها.

هذا بعض ماعـنّ لى ذكره مماقضى به الله جل جلاله مـن عدم مساواة المرأة للرجل.

انظر لأمثال سليمان الحكيم تجدها مفـعمةً بمايدلك على ذلك فمنها إنه قال مامعناه «إن المرأة منبع الفساد لا يليق أن يتبعها الانسان أو يطلقها فى حرّيتها لأنها إذا تمكنت من ذلك طرحته فى فخّ المصائب دون أن يعلم ذلك».ثم قال «إنها ايضاً أمرّ من الموت. وهى شباك وقلبها إشراكٌ ويداها قيود فلايحمى الله منـها الا الصالـح. ولايجازى بـها الا الطالـح . على أنـني قد بـحثت كثـيراً فوجدت بـين الالف رجل،رجلاً صـالحاً وبين ذاك العـدد من النسـاء لم اجد امرأة صالحةً لان الله خلق الرجل مستقيما اما هى فخلقها معوجة»(١)

ومما ينبغى ذكره فى مثل هذا المقام تعزيزاً لتفضيل الرجل على المرأة ماذكره الفيلسوف «كونفوشيوس» الذى أسس الديانة الكونفوشية سنة ١١٧١م قبل الهجرة تقريباً وبلـغ أمره مبلغا عظيماً ببلاد الصين الكائنـة بالجهة الشرقية من اقاليم آسـيا التى يقطنـها الساميون . وكـانت أمته فى ذاك الوقت تـعدّ بمئات الملايين ذات تمدنٍ وآدابٍ شهدت بهما التواريخ والآثار حيث قال مامعناه :إن الرجل وهو رئيسٌ كل شئٍ. اما المرأة فهى مقيدة به لاتأتى عملاً من نفسها بل تكون طوع أوامره ونواهيه .ولاتخرج عن أحوال ثلاث:

أولاً: إذا كانت صغيرةً أطاعت والدها وأخاها الاكبر

ثانياً: إذا تزوجت أطاعت زوجها

ثالثاً: إذا ترملت اطاعت ابنها الاكبر.

(١) الجامعة : ص٧ .

فظاهـر من هذه الاحوال الثـلاثة إنه لايجوز لهـا الامر والنهى وانمـا يكون عملها قاصراً على الاشغال المنزليـة التى يكلفها بهاالاب والزوج والابن. كلّ ذلك قـد حمل الرجـل العاقـل على استـصواب تقـييد المـرأة فخصص لـها الأعمال المنـزلية واشتغل هـو بالاعمال الخارجيـة. على أنك لو فطـنت لما هو مدوّن فـى بادئ الـكلام لرأيـت أن الله لما خـلق آدم وحـواء وأهبطـهمـا إلى الارض علم آدم الاسماء كلها وكيفية خدمة الأرض من حرثٍ وزرْعٍ وحصادٍ وكل مستلزمات المعيشة الدنيوية. أما حواء فانه تعالى لم يعلمها ماعلمهُ لآدمَ ووفقها لمـعرفة صناعة العـجين والخبز والطبيـخ والغزيل والنسيـج والخياطة وكلما يختصّ بالاعمال المنزلية التى تناوبتها المرأة بعدها للآن .

وقد ينطبق على ذلك مافاه به سليمان اذ قال :« حكمة المرأة أن تبنى بيتها» ولايخفـى مافيه من تـخصيص المرأة بالاعـمال المنزليـة ليس إلا لانها كـثيرة «تأمل» لايسعها معها الاشتغال باعمال اخرى.

وقد يلائـم ذلك ايضاً مـاورد فى رسالة بولـس الأولى إلى تيـموثاوس اذ قال:«أريد أن الحدثات يـتزوّجن ويلدن الاولاد ويدبرْنَ البـيوت» وعلى هذا الترتيب لم يخصصها بشيء، ما خلاف ذلك

ويعزّز ذلك مـا أبداه كونفوشيوس الـبادى ذكره فقد قال:« ولايـجوز لها الأمر والنهى إنما عملها قاصر على الأشغال المنزلية»

على أن كلَّ مطلع على التواريخ القديمـة يعلم جيداً أن الاعمال المنزلية فى الايام الخـالية كـانت جـزئيةً جـدا لان المعيـشة من مـأكلٍ ومـشربٍ وملـبسٍ

ومسكن وإقامة وسفر كانت بسيطة للغاية. فإذا كانت المرأة وقتها مقيدة بالاعمال المنزلية فقط فما بال من يطلب لها الآن أن تشتغل باعمال أخرى مع أن المعيشة فى هذا ا لوقت مفتقرةٌ لاشغال منزلية «تأمل» اكثر بكثير من اشغال تلك الايام الغابرة «وهى تكييف وتهيئةً مأوىً راحة الرجل بعد عودته من نصب الحياة».

الحجاب ـ إذا علم الانسان ما ذكرناه تيقن لأول وهلة أن الحجاب كان من مستلزمات حالة المرأة فى ذاك الوقت حفظاً لكرامتها ومنعاً لما عساه أن يحدثه ظهورها من المصائب والكوارث. الا إنه قبل الدخول فى الموضوع يلزمنا أن نقف على معنى الحجاب ثم نورد الشواهد الدالة عليه من قديم الزمان كما ورد بالتاريخ المقدس وغيره.

الحجاب قبل الإسلام

وأوّل ما يشير إلى ذلك هو ما حصل لسارة «امرأة إبراهيم الخليل» مع الضيف الذى بشرها بالحمل فإنه فعل ذلك بواسطة زوجها إبراهيم إذ كان واقفاً خارج خيمتها مع ضيفيه. وهذا يشير إلى الحجاب وإلا لخاطبها مباشرةً[١]

ثم لما أن أرسل إبراهيمُ العيازر[٢] ليخطب بنتاً لابنه إسحاق وتوجه لمدينة«ناحور» وخطب ابنة أخى إبراهيم التى تدعا«رفقا» وعاد بها لفلسطين محل وجود إسحاق فلما رأته اخذت البرقع وحجبت وجهها عنه. الأمر الذى يشير إلى وجود أثرٍ للحجاب فى ذاك الوقت[٣]

---

(١) تكوين : ص ١٨ (٢) أمين بيت إبراهيم

(٣) تكوين : ص ٢٤

وفضلا عن ذلك فإن ماحصل من «ثامار» ليهوذا «ابن يعقوب بن إسحاق» من احتجابها عنه بتبرقعها وتلففها بثيابها عند مروره عليها ورؤيته اياها لما يثبت قطعياً إنه لو لم يكن الحجاب متعارفاً فى تلك الأيام لما حصل ذلك من ثامار(١)

على أنه قد ثبتت أقدمية استعمال الحجاب ببلاد فارس بدليل أن الملك «احشورش» لما أن عمل مهرجاناً لجميع شعبه سبعة أيام فما كان من زوجته الملكة وقتها إلا أن عملت مهرجاناً آخر للنساء بمعزل عن الرجال ولو لم يكن للحجاب أثر لما كان هناك انفصال خصوصاً فى الأفراح(٢)

على أنه من أقوال اشعيا النبى يحكم الإنسان بوجود الحجاب فى تلك الأزمان إذ قال « ينزع السيد فى ذاك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والأساور والبراقع والعصائب .. الخ»(٣) ولا يخفى أن أغلب هذه الزينة من مستلزمات الحجاب

وقد قال أيضاً ضمن مخاطبته المرأة:«اكشفى نقابك»(٤) ولا يخفى أن فى ذكر النقاب إشارة للحجاب

ثم ورد برسالة بولس إلى تيطس(٥) ضمن كلام عن النساء «بأن يكن متعقلات عفيفات ملازمات بيوتهن. صالحات خاضعات لرجالهن»(٦) ولايخفى أن أمر ملازمة البيوت هو عين الحجاب.

(١) تكوين : ص ٣٨
(٢) استير: ص ١
(٣) : ص ٣
(٤) ص ٤٧
(٥) تيطس كان احد المساعدين لبولس الرسول فى نشر الكتاب.
(٦) ص : ٢

علـى أن أرباب الأديان السـماوية لو افـتخروا بمـا ذكر عن حجـاب المرأة لافتخـرت الأمة الصينـية أيضاً بما سـنه الفيـلسوف كونفـوشيوس بشريـعته الأرضية إذ قال فى الحجاب وماقوله إلا الخير والصواب:

«لايجوز للـمرأة أن تأمر وتنهـى فإنما عملها قـاصر على الأشغال المـنزلية ولابدّ من احتجابها بالبيت حتى لايتعدّ خيرها أو شرّها عتبة الباب»

كما وأنه مما يثبت وجود الحجاب بـبلاد العرب من قديم الزمان ماورد فى أقوال الربيع بن زياد العـبسى أحد شعراء قبيلة بنى عبس أيـام الجاهلية عندما رثى مالـك بن زهير«أحد أمـراء تلك القبـيلة» الذى قـتلته بنـو فزارة إذ قال ضمناً :

من كـــان مســـروراً بمقتـل مالك — فـليـأت نـسـوتنـا بـوجـه نهـارِ
يجـــد النســـاء حـــواسراً ينـدبنهُ — يـلطـمن أوجـهـهنّ بـالأسحـار
قد كـــــنّ يخـبأن الوجـوه تستـراً — فـالـيـوم حـين برزْن لـلـنـظـارِ
يضـربن حـرّ وجوهـهن عـلى فـتًى — عـفّ الشـمائـل طيـب الأخبـار

وإلى هنا اكتفى بما ذكرتُ عن الحجاب قبل الإسلام.

قد ثبت تاريـخياً أن الدولة الرومانية بلـغت شأواً بعيداً ومبلغاً عـظيماً من التقدّم فى المدنية تقدماً لم تبلغ شأوه دولة من عهد الخليقة للآن. وكانت المرأة حينذلك متمسكة بالحجاب.

قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر:

«كانت النساء عند الرومانيين محبات للعمل مثل محبة الرجال له وكنّ يشتغلن فى بيوتهنّ. وأهم أعمالهن بعد تدبير المنزل هو الغزل وشغل الصوف». ثم قالت: «وكنّ متغاليات فى الحجاب لدرجة أن القابلة(الدّاية) كانت لاتخرج من دارها إلا ووجهها ملثم باعتناء زائد وعليها رداء طويل يلامس الكعبين وفوق ذلك عباءة لاتسمح برؤية شكل قوامها».

ومثبوت تاريخياً أن تلك الدولة كانت راقية أوج الكمال ساعية فى اتساع دائرة نفوذها فى هذه المسكونة أثناء وجود المرأة على تلك الحالة حتى تفننوا فى الصنائع وشيدوا الهياكل وفتحوا البلاد وامتلكوا رقاب العباد. الأمر الذى خلده لهم الزمان حتى غرهم سلطانهم فاستبدّوا بصولجان الملك والعظمة ودعاهم داعى اللهو والترف لرفع الحجاب عن المرأة وتحريرها«تأمل» كى تكون أسوتها أسوة بالرجال فى كافة الأعمال.

فلما أدرك عقلاء تلك الأمة عاقبة هذه الحالة قاموا فصاحوا وناحوا على منابر الخطابة محذرين ومنذرين بالخطر الذى يتهدّدهم بسبب رفع الحجاب. إذ فيه مافيه من الأضرار الجسيمة التى تعود على الهيئة الاجتماعية وخصوصاً على الدولة بالفشل والوبال . قال«كاتون» أحد فلاسفة الرومان الشهير فى القرن السابع قبل الهجرة «الثانى قبل الميلاد» كما ورد بدائرة معارف القرن التاسع عشر:

«أتتوهمون معشر الرومانيين أنه يسهل عليكم احتمال النساء والرضاء بهنّ إذا مكنتموهنّ من فصم الروابط التى تقيد استقلالهنّ وتخضعهنّ

لازواجهنّ؟ ألـم يصعب عـلينا(نحـن الرجال) حتـى مع وجود هذه الـقيود إلجاؤهنّ إلى أداء واجباتهن؟»

ولكن المقـادير لم تساعده ومن نحـى نحوه على مقاومة تـيار ذاك المشروع فرجعـوا عنه بخفـى حنين. إلاأنه بعـد أمد غير بعـيد تحققت انـذارات كاتون المذكور حيث قالت دائرة المعارف المذكورة :

«إنّ كاتون لـم ينجح فى دفـاعه عن ذلك القـانون(أعنى الحجـاب)ولكن تحققت إنذاراته تماماً».

وحقيـقة فإنه عقب ذلـك تهتكت المـرأة تهتكاً زائـداً حتى تلفت اخـلاقها وخدشت عفتها ورُفع حياؤها وصارت تحضـر التياترات وتغنى فى المنتديات «تأمل» وتأتى كل شيءٍ مماتأتيه المرأة الغربـية الآن مماجرّها للاستقلال بنفسها والنشوز عـن إطاعة والديها وزوجهـا إلى أن آل الأمر لانقلاب الرجل عـليها حينـذاك شر انقلاب. فتغـلب عليها بمـا اودعته الطبيـعة فيه من الغـيرة وقوة الجسـم والعقل. فـاضطهدهـا اضطهاداً لا مـزيد علـيه آل للاستـبداد عليـها استبداداً جرّه لحرمانها من أكل اللحـم والضحك والكلام. ولم يكتف بذلك بل وضع فى فمها قفلاً مـتيناً يسمونه بالرومانية «موزلييـر» قلنا هذا قليل من كثير مما كانت تعامل به المرأة الرومانـية حينذاك لأن الرجل أعدّ لتعذيبها آلات غريبة وأساليب عـجيبة قد تقشعرّ منها الأبدان ويـذوب لهول ذكرها الجنان. منها إنه كـان يصبّ القطران المغلى علـى جسمها. أو يربط أطرافهـا فى جملة خيول ثم يتسلط على الخيول بالسوط فيأخذ كلّ منها وُجهةً فى السير تخالف

الآخر فتتمزّق إرَباً إرَباً. أويضعها فى سارية«اسطوانة» تحتها نار هادئة مدةً مديدة فتموت على تلك الحالة بتساقط لحمها وشحمها ... أو ... أو مما يذيب الفؤاد وتشمئزّ منه نفس العباد كما هومسطور فى مجلة المجلات مجلد ١٥ .

عفواً أيها المطلع فلربما ترمينى بسهام الانتقاد زعماً منك أننى خرجت بهذا الوصف عن دائرة الحقيقة. فلا وربك ما هذا إلا قليل من كثير يذكرنا بالمرأة السامية أيام الجاهلية حيث كانت محتقرة مهانةً وانتابها ما انتابها من الجور والاعتساف.

وهكذا لبث حال المرأة الرومانية حتى القرن السابع عشر فانمحت تلك المعاملات من الدولة بانحطاطها وتمزيق شملها كلّ ممزّق. واللبيب يرى أن ذلك ماحصل إلا من وضع الشئ فى غير محله ألا وهو مساواة المرأة بالرجل عكس ما قضت الحكمة الإلهية وسنن الفطرة .

الفصل الثالث

الاستدلالات النظرية والعقلية والطبية والقياسية على عدم مساواة المرأة للرجل

الاستدلالات النظرية ـ أننا إذا نظرنا للحيوانات البهيمية والطيور التى لم تحرمها الحكمة الإلهية من إلهام مناسب لها يساعدها على مكابدة المعيشة الدنيوية لنجد أن للذكر فيها على الأنثى سلطاناً بمعنى أنها لاتسير ولاتأتى عملاً ما إلا إذا كان هو البادئ به فضلاً عن أن الناظر لنوع منها يحكم لاوّل وهلة على بعضها بالذكورة والبعض الآخر بالأنوثة لاختلافهما عن بعضهما فى الشكل والهيئة. ولنضرب مثلاً بالدّيك بين الدجاج إذ نرى له شبه عائلة مركبة من خمس أوست دجاجات مثلا فإذا دخل عليه ديك يغضب عضباً شديداً وينقضّ عليه انقضاض الأسود حتى يتغلب عليه ويطرده من بين عائلته ومن الغريب أننا لانرى إحدى الدجاجات تساعده على ذلك الأمر الذى ترى منه إنها متكلة على الديك الذى أناطته الحكمة الالهية بحمايتها وجعلها على الدوام تحت سلطانه ولايخفى مافى ذلك من تمييز الذكر على الأنثى.

هذه المرأة ياصاح إذا أخذت فكرها عن شيء ثم قارنته بفكر رجل يوازنها فى السنّ والمعارف لرأيته على الدوام إن لم يكن مخالفا للحقيقة ففيه اختلاف ظاهر عن فكر ذاك الرجل وماذلك إلا لحكمة لاتخفى على كل مطلع لبيب.

قال الفيلسوف الاشتراكي«برودون» فى كتابه «ابتكار النظام»:«إن وجدان المرأة أضعف من وجداننا بقدر ضعف عقلها عن عقلنا. ولأخلاقها طبيعة أخرى غير طبيعة أخلاقنا. فالشيء الذى لاتحكم عليه بالقبح والحسن لايكون هوعينه مايحكم عليه الرجل»

وهب أننا ضربنا صفحاً عن ذلك وفرضنا أنها تساويه جسما وعقلاً فإننا إذا نظرنا لحالتها على وجه العموم لوجدنا أن الوقت لايساعدها على مشاطرة الرجل كل الأعمال إذ أنه عندما تظهر عليها علامات الحمل تقضى حالتها بتجنبها كلما يتعبُ منها الجسم والفكر فلا تأتى عملاً شاقاً أو تشغل فكرها بأمر محزنٍ لأن الجنين فى بطنها هو جزء من جسمها مرتبط بدمها واعصابها يتأثر بتأثرها من أى فعلٍ جسمانيّ أو نفسانى والخلاصة أنه يصحّ بصحتها ويعتلّ باعتلالها فإن حياة الطفل وهو جنين متوقفة على حياة أمه.

هذا فضلاً عما تستلزمه الحالة من مراعاة المأكل والمشرب والرياضة البدنية الموضوعة فى قوانين معلومة مألوفة عند كل أمةٍ ومدوّنة بكتب الطبّ من القدم . فهذه الحالة تلبث عليها الحامل تسعة أشهر معلومة حتى يأتيها المخاض فتلد وتمكث بعد الولادة نحو الثلاثة أشهر فى تعبٍ وهزالٍ. ثم تشتغل بالطفل نحو السنة تقريباً تباشر فيها رضاعته وما يلزمه من ملبس ونظافة ورياضة وقعودٍ ونومٍ مما نسميه ـ التربية فى عهد الطفولة ـ بحيث أنها لو أهملته قليلاً لعاد عليه وعليها بالوبال.

هاتان سنتان مضتا على المرأة وهى مشغولة مع أنهما لا ينتهيان إلا ويأتيها

الحمل الثانـى فتسير فيه كما سـارت فى الحمل الأوّل وهكذا تتنـقل من حمل لآخر حتى تضعف ويتولاها الكبر فتكون على الدوام سهلة التعرّض لتقلبات الحدثان. ولعـل هذا هو السبب فى تـقهقر عقلهـا بعدسنّ الثلاثين كـما ثبت بالاختبار.

فهل يـليق بهـا وهى حامل أن تشـتغل بالأعـمال السياسـية أو العلـمية أو التجـارية أو تعرّض نفـسها للمؤثـرات الجوية والتأثـرات النفسانـية؟ مع أن الحمل وما ينجم عـنه من وحم وهزال جسمٍ وتعب فكرٍ يطالـبها بالكفّ عن ذلك؟

وهل يليق بهـا أيضاً أن تأتى ذلك أو بعضاً منه وقانـون الطبّ والتجارب يطالـبها بالاعتـكاف فى المنزل ومـراعاة انتظـام مأكلها ومـشربها وحركـاتها وسكناتها مع تخفيف خدمتها بأيّ وسيلةٍ كانت؟

أيليق بها أيضاً أن تـأتى ذلك بعد الوضع وقانون الصحة والتربـية يطالبها بالانقطاع عن كل شيء حتى تسترد صحتها وتفوق مما كانت فيه من مصائب الحمـل ثم تـقوم بـخدمـة ولدها وتـربيـته ممـا فرضه عـليـها الـدين والـعادة والإنسانية؟

يا هل ترى مـاذا يكون من أمرها عنـدما تكون فى منصـة الأحكام؟ أوفى ميدان البرلمان؟ أو فى المعامل التجارية والصنـاعية ثم يأتيها الدم فيسيل منها كما تسيل الأنهار؟ والمصيبة أنه يمكث عند بعض النساء من يوم إلى سبعة أيام وما يصاحبه من ألم وتقلب حالتها النفـسية والعصبية وقضت الحكمة الإلهية

بأن أعفتها من الصلاة والصوم فى هذه المدة. كل ذلك مما يثبت نظرياً أن الوقت لدى المرأة ضيق جداً لايساعدها على مشاطرة الرجل كل الأعمال ومن يقول غير ذلك فقوله إفك وبهتان لايقبله العاقل مهما كان.

الاستدلالات العقلية ـ وبصرف النظر عما ذكر فإننا لو تأملنا عقلياً فى حالة الرجل لرأينا أن مواهبه الطبيعية والاكتسابية كثيرة جداً منها: صلابة الجسم . والإقدام وقساوة القلب.والشجاعة. وخشونة الطبع. بينما نرى مايقابلها فى المرأة عكس ذلك . فهى لينة الجسم . ضعيفة العزيمة لاتقبل الجراءة والإقدام. شفوقة. ذات جبنٍ. رقيقة الطبع.

وقد وصفناها بليونة الجسم لأنها لاتتحمل المشقات كما يتحملها الرجل. وبضعف العزيمة لأن قلبها مفطور على الضعف إذ لو كانت على عكس ذلك لنبذت تلك السلطة وجنحت إلى الاستقلال وصممت على عدم المضيّ على مقتضى أوامر وليّ أمرها من والدٍ أو زوج. وبالشفقة لأن ضعف قلبها كما قدّمنا يساعد على ذلك . وبالجبن لأن الشجاعة تستلزم ضدّ ما لصق بها من الأوصاف المتقدمة وبرقة الطبع ولوأنها خلة محمودة فى الرجل إلا أنها أعظم زينة للمرأة . وعلى وجه العموم فإنها لو اتصفت بغير هذه الأوصاف لما ألفها الرجل. ولايخفى ماينجم عن ذلك من عدم انتظام هذا الكون كما سنبين ذلك إن شاء الله عند التكلم على التمدن الحديث.

نتج من ذلك أن للمرأة أوصافاً لاتساوى ما يماثلها فى الرجل بل تناقضه ولايخفى مافى ذلك من لزوم عدم مساواتها به. ولو سلمنا جدلاً بمساواتهما

لبعضهما فياهل ترى ماأسباب تغلب الرجل عليها وحجزه إياها عن كل ماتريد من عهد الخليقة للآن؟ أليس ذلك ناشئاً من أنه خلق أعظم منها قوة وعقلاً.

الاستدلالات الطبية. قد شرحنا ما ذكرناه عن حالتها الظاهرية والقارئ يتشوّق لمعرفة مخالفتهما لبعضهما باطنياً ولكى نتوصل لذلك نستعين بما قيل عنهما طبياً عسى الله يهدينا سواء السبيل . فقد قال الرشيدى الحكيم المشهور فى كتابه «بهجة الرؤساء فى علاج أمراض النساء» صحيفة ٥٨١ مانصه:

* «إن المجموع العظمى للمرأة يختلف عن نظيره فى الرجل فعظامها تكون أقل كبراً وصلابة وقصراً. ونتواتها وبروزاتها أقل وضوحا لكن الاختلاف الأهم فى الاعتبار يكون فى عظام الصدر وعظام الحوض»

* «والمجموع العضلى أقل متانة . وجزء العضلات المتوسط أقل بروزاً . وأطرافها أرق. وتنتهى بأوتار ترتبط بالعظام ارتباطاً ضعيفاً وأليافها المركبة لها أدقّ وأرقّ»

* «ويوجد فى جميع أعضاء المرأة مقدار عظيم من المنسوج الخلوي. وذلك المنسوج فيهن أقل صلابة ويحتوى فى خلاياه على مقدار عظيم من الشحم وبتوزعه فى الأعضاء توزّعا مختلفاً يلطف مرور بعض منها للآخر ويمحو من سطح الجسم ما يعرض له مما يزيل تساويه وتمهده.ويعطى لجميع أعضاء المرأة الالتفاف والاستدارة اللطيفة المقبولة لنا».

* «وإذا نظرنا إلى المجموع الدموى فيهنّ نجد عروقهنّ أدقّ وأضيق مما فى الرجال. والأوعية اللنفاوية فهنّ كثيرة متسعة بخلافها فى الرجال. ومجموعهنّ العقدى فى غاية مايكون من النموّ وبذلك يتضح زيادة الإحساس فيهنّ وشدة تأثرهن»

*«وجلد المرأة يختلف أيضاً عن جلد الرجل. فإن منسوجه أرقّ وبهذا يكون ألطف وأنعم وألذّ فى اللمس. ويكون أيضاً اكثر إضاءةً وذلك ناشيء من زيادة سهولة نفوذ الأوعية الدموية فيه»

* «وشعرهنّ أطول وأكثرسباطة وأطول بقاء. ويشاهد أيضاً فروق عظيمة بين النوعين ـ الرجل والمرأة ـ بالنظر لأعمال الوظائف. وصوت النساء أحدّ والين.وذلك ناشئ من ضيق حنجرتهن. والوظائف الهضمية فيهنّ أقل شدّة وتنفسهنّ يكون أقل لغطية وشدة وأسهل لأن الرئتين فيهنّ أصغر وأقبل للاتساع وأقل دموية. وأما الإفرازات فيهنّ فأقل. والبول قليل التحمل بالأملاح .وذلك هو الذى يصير المرأة أقل تعرضاً للآفات الحصوية»

«كذلك توجد اختلافات مهمة فى ترتيب المجموع المخيّ بين الرجل والمرأة. وهذا هو السبب فى ضعف القوى العقلية فيها عن الرجل. فالرأس فى المرأة أصغر من رأس الرجل ويتضح بالطبيعة من بعد اقطار مخّ الإناث عن الذكور ضعف قوة وظائف هذا العضو عموماً. وجبهة المرأة أقل عظما وانكشافاً منها فى الرجل أو تكون أعظم عند اتجاهها نحو الأنف بحيث يكاد

أن لايوجد هناك تقوّس. ولذلك لاتحتوى المرأة غالباً إلا على درجة ضعيفة من القوى العقلية التى أعضاؤها تشغل هذا الجزء المقدم من النصفين الكرويين للمخ كذكاء العقل والفطانة والنباهة وفوق التقابل والنفوذ فى المعانى الغويصة والاقيسة المنتجة. ووجود نساء أصحاب ذكاء وفطنة ومعارف نادر جداً ـ والنادر لاحكم له ـ هذا ولو تعمقنا فى البحث فى معظم من اشتهر من النساء بالذكاء لرأينا أن منهنّ من كان اشتغال حافظتها بالعلل والنتائج والأعمال المتعلقة بالذكور. وتلك طبيعة فيهنّ. ومنهنّ من كان المرشد لها هو الالهامات الحاصلة من أحوال استيرية أعنى بواسطة تزايد قوة فى عضو الاحساس العشقي. وبالجملة لايوجد فى كتبهن الغوص فى المعانى ولاالترقى فيها ولا دقتها الدّالة على صحة العقل والملكة».. انتهى مع بعض اختصار.

كما وقد قال الدكتور «دوفاريني» فى دائرة المعارف الكبيرة عند التكلم على المجموع العضلي:« أن المجموع العضلى فى المرأة أقل حجماً وأضعف منه عند الرجل بقدر الثلث وحركاته أقل سرعةً وأقل ضبطاً»

ثم قال الفيلسوف «برودون» فى كتابه« ابتكار النظام» مايأتى حرفياً: «وحيث أن كل جمعية مكونة من اتحاد هذه الثلاث عناصر وهى . العمل والعلم والعدالة. فيكون القدر الحقيقى للرجل المرأة هو كنسبة ٣×٣×٣ إلى ٢×٢×٢ أعنى كنسبة ٢٧ إلى ٨ وبهذه الشروط لايمكن أن توازن قوى المرأة قوى الرجل فخضوعها له أمر لامناص منه .فهى أمام الطبيعة والعدالة لاتوازى ثلثه فيكون التحرير الذى يطلبه بعضهم باسمهنّ هو تسجيل الشقاء عليهن تسجيلاً شرعياً ان لم أقل تسجيل العبودية»

ثم بعد أن قارنت بين كل الأعضاء مقارنة علمية مبنية على الامتحان التشريحى الدقيق قالت: «ان تركيبها الجسمانى يقرب من تركيب الطفل.ولذلك تراها مثلاً ذات حساسية حادة جداً تتأثر بغاية السهولة بالاحساسات المختلفة كالفرح والألم والخوف. وحيث أن هذه المؤثرات تؤثر على تصورها بدون أن تكون مصحوبة بتعقل فلذلك تراها لاتستمر لديها إلا قليلاً ومن هنا صارت المرأة معرّضة لعدم الثبات»

وقد ورد بالجزء الثامن عشر من السنة السادسة من مجلة الهلال الغراء: أن قلب الرجل أكبر حجماً وأثقل وزناً من قلب المرأة لأنه يزن من ١٠ إلى ١٢ أوقية فى الرجل ويزن من ٨ إلى ١٠ فى المرأة.

كما وقد ثبت طبيا أن الجهاز التنفسى للرجل يحرق إحدى عشر جراماً من الكربون فى الساعة الواحدة أما المرأة فلا تحرق منه إلا ستة ونصف تقريباً. ومن ذا يعلم أن حرارة الرجل ضعف حرارة المرأة. ولايخفى مافى ذلك من الاختلاف الظاهر والامتياز الباهر.

وفضلا عن ذلك فقد ثبت من التجارب العديدة أن عقل المرأة يبتدئ فى التقهقر فى سن الثلاثين أما الرجل ففى الأربعين.

الاستدلالات القياسية ـ دعنا أيها القارىء مما ذكرناه ولنبحث الآن فى هذا الموضوع بحثاً قياسياً فنقول : أن انتظام هذا الكون يقضى بأن لا غنى عن أحد الجنسين لارتباط مصالحهما ببعضهما فإذا كان الأمر كذلك فهل ينتظم أمرهما بدون رئاسة أحدهما على الآخر؟. كلا. فإنه لابد أن يكون أحدهما

رئيساً والآخر مرؤوس .وبناءً على ما قضت به النواميس السماوية وأغلب النواميس الأرضية وعلى حكم الطبيعة والعوائد من عهد الخليقة للآن وعلى ما يقتضيه العقل والسياسة فى كل زمان ومكان نحكم لأول وهلة بأن هذه الرئاسة هى من حقوق الرجل لا المرأة

وبالطبع ما التصقت تلك الرئاسة بالرجل إلا لما اتضح من التجارب العديدة بأنه أهل لها لكماله عن المرأة عقلا وحزماً وعزماً.







الفصل الرابع

المرأة والحجاب

الديـن ـ الإسلام دين أسـاسه الحكـمة وركنـه السـعادة البـشرية. بـل هو الضامـن العام لرقى الإنـسان مادياً وأدبيـاً والناموس الكـفيل لراحتـه أبدياً والواسـطة لسعـادته فى الدنـيا والآخرة. لأنـه ملائم لسـنن الوجود ومطـابق لنواميـس الحياة البشريـة مطابقة لايمكن أن يـجحدها من اطلـع عليه ودرس مافيه من الفضائل والمزايا العديدة.

قلنا بأنه الواسطة للسعادة فى الآخرة لأن القيام بفرائض الخالق لهذا الكون مما يؤدى إلى ذلك وإذا علمـنا ذلك وأضفناه لما ظهر لنافى أمـر المرأة تاريخياً ونظرياً وعقلياً وطبـياً وقياسياً كما سبق البيان قبلنا بـكل ارتياح كافة ماقضى به عليها الدين الإسلامى الذى كـان بودّى أن أشرح كلما ورد فيه عنها إلا أن المقام لايناسب إلا التنويه عن أهم ماهو مشترك بينها وبين الرجل.

فقد ميز الرجل عنها لزيادة عقله ولذلك جعل له عليها السيطرة والسلطان فقال تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ثم اعتـبرها عورة وستـر العورة فرض واجب ولذلك قـال تعالى :﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾

وما نوهت الشرائع السماوية وأغلب الأرضية خصوصاً الشريعة الإسلامية عن الحجاب إلا لكونه من أشرف نعوتـها وأكرم شيء تتباهى به عقلاء الأمم.

ففيه صيانة المرأة والمحافظة عليها من أيدى الفساق الأشرار. ولايخفى مافى ذلك من الاعتناء بها. إذ هى فى حالة الحجاب كالشيء النفيس الذى يهتمّ به الإنسان فيضنّ به على الناس بالحجب والإستار. وليس الحجاب كما يظنّ البعض من أنه موضع ظنّ فاسدٍ أو سجن للمرأة فيضيق عليها ويلاشى حرّيتها. كلا. فإنها تشبّ عليه من الصغر فتألفه من فطرتها حتى يخال لها أنه من مستلزماته الطبيعية فلا تمجه ولاتأباه.

ضرورة الحجاب للمرأة كضرورة التسلح للأمة. نعم نحن نعتقد تماماًماينتجه التسلح من الأضرار فى بعض الأحيان ولكنه من جهةٍ أخرى مانع لأضرارٍ كثيرة لولاه لعادت على الأمة بالخسران. فضلا عن أنّ التسلح لو استعملَ فيماوُجِد له من دفع غوائل الغير لم يترتب عليه أدنى ضرر. فكذلك الأمر فى الحجاب فإنه سلاح المرأة تدافع به عن نفسها وتأمن به على عرضها فى كلّ زمان ومكان.

يكذبون على الإنسان ويقولون:، **إن الحجاب هو طريق مؤد للفقر والفاقة. ومو صل لتمزيق ثوب العفة. وسلم لكثرة الطلاق**، مع أن أقرب شاهدٍ يدحض هذه المفتريات هو ماجريات أحوال المرأة الغربية التى أصبحت الآن بعيدة عن الحجاب بمراحل عديدة. إذ لو كان لماتقوّلوه أدنى أثرٍ من الصحة لكانت هذه المرأة المتمتعة بتلك الحرية خاليةً من هاتيك العيوب التى مانسبها الضالون المضلون للحجاب إلا لغرض فى نفس يعقوب.

هذه احصائيات العالم أجمع قد دلتنا على أن كل ١٠٠ امرأة غربية «أعنى

غير متمسكة بالحجاب» فيها ١٥ امرأة محترفة بحرفٍ تتعيش منها. وكل ١٠٠ امرأة متمسكة بالحجاب لا يوجد فيها إلانصف امرأة.وهذا دليل محسوس على أن الفقر ضارب أطنابه فى تلك البلاد الخالية من الحجاب حتى ألجأ المرأة فيها للسعى وراء معيشتها بنفسها . **ولاعيب عليها فى ذلك بل العيب كل العيب على رجلها الذى تسبب لها فى هذا الشقاء بل هذا الاستعباد.**

أما القول بأنه موصل لتمزيق ثوب العفة فلا أطيل البحث فيه بل أكتفى بالإشارة لما يُميط اللثام عن محيا الحقيقة ويكفينا مؤونة الرد على مثل هذه السفاسف والأكاذيب الباطلة مما هو منتشر الآن بالبلاد الغربية التى لم تذق طعم الحجاب فإن ما فيها من كثرة الفسق والفساد والشرور ورفع برقع الحياء لما تمجه الطبائع البشرية وتأباه النفس الأبية.

وأما القول بأنه سلم لكثرة الطلاق فحالة المرأة الحرّة كالاوروباوية والأميركانية مما تنادى بدحض هذه المفتريات. إذ قد انتشر الطلاق بهذه البلاد لدرجة جعلتها فى إسرٍ واستبدادٍ عكس المرأة التى فى حجاب. ولعمرى لوكان ذلك محتاجاً للبرهان والاثبات لأفنيت فى سبيله الطرس والمداد . ولكنى اكتفى بتنبيه القاريء للاحصاء الدقيق الذى وضعه الكاتب الأميركى الشهير«لوسن » ونشره فى مجلة المجلات الفرنساوية «مجلد ٢٥ » إذ منه ترى أن متوسط النسب ما بين الطلاق والزواج هوكنسبة ٣٠ إلى ١٠٠ .

أمامتوسطها عـند الحجاب فأقل من ذلك بكثير إذ انـه كنسبة ١٠ إلى ١٠٠. وقد يعجبـني قول لو سن المذكور اختـتاما لذاك الاحصاء وتنديـداً على حالة الطلاق فى البلاد الخالية من الحـجاب بعد ان شرح أسبابه إذ قال : «فالطلاق ينتشر إذاً للدرجة القصوى» .

الفصل الخامس

التمدن والاختلاط

التمدن ـ سبق فأوضحنا أن التمدن فى أوروبا مأخوذ عن التمدن الإسلامى بشهادة مشاهير مؤرخى ابنائها فلما انتشر وقامت قائمته بأرجائها دعوه التمدن الحديث. وكان الأوفق أن يحافظوا على أصله حتى لاتكثر آفاته فتتغلب عليه فتمحيه كما محت غيره من قديم الزمان. إلاأن القوم ـ قوم أوروبا ـ أبوا إلا السعى وراء التفريط فى فرائضه المأخوذة أغلبها عن الدين الإسلامى والتوسع فى آفاته حتى باضت وفرخت آلافاً فسرت بينهم سريان الدم فى الشريان فعمت البلوى وكثرت الخطوب من جريرة ذلك الذى لم ينشأ إلا من التفريط فى تلك الفرائض واتباع ما زينته لهم انفسهم الأمارة بالسوء وحسنته اليهم آفات تمدنهم الذى دعوه« التمدن الحديث»

على أن العاقل لو أمعن نظره قليلاً فى ما ساقه هذا التمدن للهيئة الاجتماعية من الرزايا والبلايا لحكم لاول وهلة بأنه دين جديد اساسه التفريط فى الأديان السماوية وأركانه كثرة الاختلاط يأباها كل إنسان ذى نفس أبية. وما أنتج ذلك إلا ماقضى به من كثرة الاختلاط.

راجت به العزوبية فلايتزوج الإنسان إلابعد أن يشيخ ويهرم ويفقد شبابه فى المفاسد والموبقات التى هيأها له ذاك التمدن وألبسها لباساً مؤثراً عليه وسهل عليه تناولها إذ بذلك بارت المرأة وضعف النسل وقلت المواليد قلةً تهدّد أغلب دول الغربيين الآن بسوء المآل.

راج وساد به فساد المرأة. فحملها على أن تسير على ما يقتضيه هواها ويزينه لها الشيطان من مخالطة الرجال فى المنتزهات العمومية والخصوصية سرا كان أو علانية ولو كان ذلك بعلم من عائلتها حتى جنحت للاستبداد بفكرها . فلا تنصاع لامر والديها أو وليّ أمرها مع أن ذلك فرض مقدس عليها من قديم الزمان. فضلا عن انها أخذت فى مخاصرة الرجل مخاصرة لم تتق الله فيها.

راج به الزنا فأعدّ قصوراً شامخات آهلةً بنساء يأتيهنّ الرجال أنى شاؤوا سرا وعلانيةً بصفة رسمية فيفعلون فيهنّ مايغضب الله ورسله وانبيائه والإنسانية على الاطلاق .

ولعمرى إن هذا التمدن قد ذكرنا بما كانت تجاهد فيه الأديان على الإطلاق من قديم الزمان. إذ مكن المرأة من الحرية المطلقة فسرحت ومرحت وتبرجت تبرّج الجاهلية الأولى وتركت الصلاة ومنعت الزكاة وعصيت الله ورسله فيما هو مفروض عليها حتى جرّها ذلك لعصيان زوجها.

ولاغرابة فى ذلك إذ أن التواريخ اثبتت لنا أن الدنيا أدوار من قديم الأزل. فتارةً يكون التمدن الحقيقى منتشراً فيها فيصبح الإنسان آمناً على نفسه وعرضه وماله متمتعاً بملاذ الحياة الدنيا. وأخرى يأتى ما يمحو ذلك فتحيى المفاسد وتكثر المصائب وتعمّ الخطوب كما أصبحنا فيه الآن عقب ظهور ذاك التمدن الموهوم الذى دعوه« التمدن الحديث»

سبق فقلنا أن التمدن الحديث دين اساسه التفريط فى الأديان وأركانه كثرة الاختلاط. فمن الاختلاط يرى الإنسان كل فضيلةٍ ورذيلة فيكتسب منها

ما تميل إليـه نفسه الأمارة بالسوء. ولما كـان طبعه أميل للشـرّ تراه على الدوام يجنى من ذاك الاخـتلاط كثيراً من الرذائل فـتكثر عنده المفاسـد وتقلّ مكارم الأخلاق وكـثيراً مانـرى الآن ارباب التمـدن الحديث ومـن جاراهم فيـه من الشرقيين يجـتنبون الاجتماعات ويتخـذون مساكن منفردة بعضهـا بعيد عن بعض ولو سئلوا عن الأسباب لأجابـوا بأن ذلك فرار من الاختلاط . وحقيقةً أنا إذا نظرنا لـلمفاسد والمصائب الـتى تحصل فى كل زمانٍ ومكـانٍ لرأينا أن منشأهـا هو الاختلاط . ذلك الأمر الذى يدهـشنا عندما نرىً ذاك الـتمدن قد اطلق الحرية للمرأة خصوصاً الفتاة فتـختلط بمن تشاء وتريد من الفتيات فى أى وقتٍ من الأوقات وأيّ منتزهٍ من المنتزهات.

حقيـقةً قد غلوا غـلوا كبيراً فـى أمر المرأة حتـى زاغت منهم الأبـصار عن حقيقة مايريدونه إليها من العزّ والسعادة بذاك التحرير الموهوم الذى سينقلب عليها فيما يأتـى شرّ انقلاب فتصبح فى شقاء ورقٍّ واستعباد ويصـيبها مثلما أصابها فى غابـر الأزمان . وما ذلك إلا لعدم انطباق هذا التحـرير على السنن الإلاهية ونـواميس الفطرة والـعدالة البشريـة. قال الفيلسـوف «برودون» فى كتابه «ابتكار الـنظام» بعد كلام طويلٍ عن المرأة: «فهى أمام الطـبيعة والعدالة لاتوازى ثـلثه(أعنـى ثلث الرجـل) فيكون الـتحريـر الذى يطلـبه بعضـهم باسمهنّ(أعنى باسم النساء) هوتسجيـل الشقاء عليهنّ تسجيلاً شرعيا إن لـم أقل تسجيل العبودية».

على أن إطلاق الحرية للمرأة التى أوصلتها لهذه الدرجة ضرب من الجنون لا يأتيـه إلا مـن كـان عـديـم الغيــرة فـى نفسـه وعرضه ذا شـرفٍ مزعزع الأركان.

الفصل السادس

«قول صاحب الدار»

قالت الكاتبة الانكليزية الشهيرة السيدة (آنى رود) فى جريدة «الاسترن ميل» نقلا عن مجلة « شجرة الدّر» جزء سادس سنة أولى ما ملخصه: «إذا اشتغلت بناتنا فى البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاءً من اشتغالهنّ فى المعامل حيث تصبح البنت ملوَّثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد. ألا ليتَ بلادنا كبلاد المسلمين «تأمل» حيث فيها الحشمة والعفاف والطهارة رداء الخادمة والرقيق اللذين يتنعمان بارغد عيش ويعاملان معامة أولاد ربّ البيت ولايمسّ عرضهما بسوء. نعم إنه ياعارُ على بلاد الانكليز أن تجعل بناتها مثلا للرذائل بكثرة مخالطة الرجال فما بالنا لانسعى وراء ما يجعل البنت تعمل مايوافق فطرتها الطبيعية (كما قضت بها الديانات السماوية)من ملازمة البيت وترك أعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها»

وقالت الكاتبة الشهيرة «اللادى كوك» بجريدة «الأيكو» ماترجمته نقلاً عن تلك المجلة أيضاً: «إن الاختلاط يألفه الرجال ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها. وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا. ولا يخفى مافى هذا من البلاء العظيم على المرأة. فيا أيها الآباء لايغرّنكم بعض دريهمات تكسبها بناتكم باشتغالهنّ فى المعامل ونحوها(من أعمال الرجال) ومصيرهن إلى ماذكرناه . فعلموهن الابتعاد عن الرجال إذ دلنا الإحصاء على أن البلاء الناتج من الزنا يعظم ويتفاقم حيث يكثر الاختلاط بين الرجال

والنساء. ألم تروا أن أكثر أمهات أولاد الزنا هنّ من المشتغلات فى المعامل ولولا الأطباء الذين يعطون الأدوية للاسقاط لرأينا أضعاف مانرى الآن . ولقد أدّت بنا هذه الحال إلى حدٍّ من الدناءة لم يكن تصورها فى الامكان حتى أصبح رجال مقاطعات من بلادنا لايقبلون البنت زوجةً مالم تكن مجرّبة - أعنى عندها أولاد من الزنا ينتفع بشغلهم - وهذا غاية الهبوط فى المدنية. فكم قاست هذه المرأة من مرارة هذه الحياة حتى قدرت على كفالتهم والذى اتخذته زوجاً لها لاينظر لهؤلاء الأطفال ولايتعهدهم بشىء يكون.

ويلاه من هذه الحالة التعيسة!! ترى من كان معيناً لها فى الوحم ودواره!! والحمل وأثقاله!! والوضع وآلامه!! والفصال ومرارته!!» انتهى.

هذا ولو تدبر القارئ الكريم وامعن نظره قليلا لابدّ وأن يتحقق إليه أن ذلك نتيجة اختلاط المرأة بالرجل ومشاركتها إياه فى كافة الأعمال كما هو حاصل الآن فى معامل أروباء وأدعياء التمدن ذلك الأمرالذى طالما يؤدّى لتجريدها من سلاح الفضيلة وتعويدها على عوائد مخالفةٍ لفطرتها التى فطرها الله عليها من اللطف ورقة الجانب والجاذبية الإناثية وغيرذلك من مستلزماتها الخاصة بها.

ولعمرى فإن المرأة لو تجرّدت من ذاك اللطف وتلك الرقة وهاتيك الجاذبية لأصبحت أمام الرجل مبتذلة فيأتى زمن فيه يضعف ميله إليها وربما يتلاشى حتى يتنازل التناسل تنازلا سريعاً ولا يخفىماينجم عن ذلك من عدم انتظام الكون.

قال العلامة الإنكليزى «ساموبل سمايلس» فى كتابه المسمى «الأخلاق أن النظام الذى يقضى بتشغيل المرأة فى المعامل والفابريكات مهما نشأ عنه من الثروة فإن نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية. لأنه هاجم هيكل المنزل وقوّض أركان العائلة ومزّق الروابط الاجتماعية. فإنه بسلبه الزوجة من زوجها صار بنوعٍ خاصّ لانتيجة له إلا تسفيه أخلاق المرأة. لأن وظيفة المرأة الحقيقية هى القيام بالواجبات المنزلية كترتيب مسكنها وتربية أولادها والاقتصاد فى وسائل معيشتها مع القيام بالاحتياجات العائلية. ولكن المعامل سلختها من كل هذه الواجبات . بحيث أصبحت المنازل غير منازل . وأضحت الأولاد تشبّ على تربيةٍ غير التربية الحقيقية لكونها تلقى فى زوايا الاهمال. وطفئت المحبة الزوجية. وخرجت المرأة عن كونها الزوجة الظريفة والقرينة المحبة للرجل وصارت زميلته فى العمل والمشاق وباتت عرضة للتأثيرات التى تمحو غالباً التواضع الفكرى والأخلاقى الذى عليه مدار حفظ الفضيلة»

نعم قد طفئت المحبة الزوجية تصديقاً لقول العلامة المذكور حتى كاد الزواج الشرعى ـ أعنى الخالى من الغشّ والتدليس ـ لدى أرباب التمدن الحديث أن يكون معدوماً بالكلية . لانهم استعاضوه بزواجٍ تارةً يكون مؤقتا تصريفاً للشهوة البهيمية . وطوراً يكون لمدد معينة محدودة «عقود» مخصوصة. وآونةً يكون سببه العشق والغرام حتىً إذا قضى كُلّ منً الزوجين وطره انفضّ احدهما عن الآخر وتركه وتعلق بمن تقع عيناه عليه فيهواه ويتخذه زوجاً آخر.

وقد باتت عرضة للتأثيرات التى تمحو تواضعها الفكرى والأخلاقى إذ عليه مدار حفظ فضيلتها التى بها تحبب الرجل إليها فتجذبه أينما حل وسار. ذلك الأمر الذى أشار إليه الفيلسوف «اجوست كونت» فى كتابه «النظام الشمسي» إذ قال: «يجب أن تكون الحياة النسائية منزلية على قدر الامكان. ويجب تخليصها من كل عملٍ خارجيّ ليمكنها أن تحقق وظيفتها الحبيَّة على مايرام».

نعم يلزم تخليصها من كل عملٍ خارجيّ كما قال الفيلسوف المذكور ولكن ليس ذلك لتحقيق وظيفتها الحبية التى تجذب الرجل إليها فقط بل لتدارك ماعساه ينتج بسببها من الخلل الذى يعود عليها وعلى الإنسان فى الهيئة الاجتماعية بالبوار.

على أن ابواب ذاك الخلل كثيرة جداً فلا تعدّ ولا تحصى إلا أن أهمها بوار المرأة حيث لاتتزوج . ذلك الأمر الذى يترتب عليه وجود كثير منها عالة على الهيئة الاجتماعية فيقلّ النسل وتكثر المفاسد حيث تزول مكارم الأخلاق . فضلاً عن كونها تكون بسبب تعاطيها أشغال الرجل شاذة فيجوز للهيئة الاجتماعية أن تسميها «الجنس الثالث» أعنى أنها ليست برجل ولا امرأة لمنافاتها للأول طبيعة وتركيباً وللثانية وظائف وأعمالاً.

قال «جول سيمون»: «يجب أن المرأة تبقى امرأة كما قال المسيو لوجوفيه. نعم يجب أن المرأة تبقى امرأة فإنها بهذه الصفة تستطيع أن تجد سعادتها وأن تهبها لسواها. فلنصلح حال النساء ولكن لانغيرها. ولنحذر من قلبهنّ رجالاً لأنهنّ بذلك يفقدْن خيراً كثيراً ونفقد نحن كل شيء. فإن الطبيعة قد أتقنت

كلما صنعته فلندرسها ولنسعى فى تحسينها ولنخشى كل مايبعد عن قوانينها وأمثلتها»

هكذا قام العلماء والخطباء يندّدون ويطلبون الإصلاح إلا أنهم ويا للأسف كانوا يصرخون فى وادٍ والأمم الغربية فى وادٍ.

على أن هذا التنبيه وذاك التحذير يذكرنا ما كان يأتيه الفيلسوف «كاتون» عندما وصلت المرأة الرومانية للحالة التى ذكرناها فيما سبق بيانه فى الفصل الرابع بسبب الحرية التى نالتها وقتها مثل مانالته المرأة الغربية الآن التى لا بدّ أن تدور عليها الدائرة فينتابها ما انتاب تلك فى غابر الأزمان.

يا أيها الغربيون مالكم عن التذكرة معرضون وقد تحقق لكم الأمر وظهرت لكم مصائب حرية المرأة المخالفة للنواميس الطبيعية والأوامر الإلهية؟

ويا أيها الشرقيون مالكم قد ساقكم التمدن الحديث للتقليد الأعمى ونزع من انفسكم الكمال الأسمى فأمسيتم عن الحقيقة تائهين وعن أقوال أصحاب الدار غافلين؟

أما آن لكم جميعاً أن تفتحوا الآذان وتنظروا ما آتيناه لكم من عظيم البرهان فتنصاعوا للحقيقة غير مبالين؟

أما آن لكم أن تفوقوا من رقادكم وتنتهوا من لعبكم ولهوكم وتنفضوا عن زخارف هذه الحياة الدنيا مما هيأه لكم التمدن الحديث؟

يا أيها الرجـال طالما قلتم إن هذه الحياة مـحفوفة بالمكاره التـى تلزمكم أن تمضـوها فى الـلهـو واللعـب حيث ذلـك قضـى عليـكم بإهـمال أمـر المرأة فتركتـموها تشاطركـم الأعمال كى تكون ريـحانة أنسٍ فى أعمـالكم ووردةً كالدّهان فى مجتمعاتكم فينتهى الوقت وينقضى العمر على أحسن حال. مع أن الحياة طيبة للغاية إذا وضع الإنسان كلّ شيءٍ فى محله.

قال «جول سـيمون» :«إن الحياة طيـبة هنية ولـكن بشرط أن يعلـم كل من الرجل والمرأة المحل الذى خصصه الله تعالى لكلّ منهما»

يزعـمون أن المرأة إذا أرادت أن تنـفذ مافى ضـميرها لا يمـنعها عـن ذلك حبس حـريتها ولـو كانت فى قـفصٍ من حديـد ولكنه زعـم فاسد دحضـته العـقليات والـنقلـيات . يؤيد ذلـكً مانراه فى تـصرّفات المـوظفين بأشـغال حكوماتهم الرسمـية التى ائتمنوا عليها. فترى المـوظف إذا كان مطلق الحرية يتلاعب بها طبق ما يشتهى ويريد بينما نراه محافظاً عليها محافظته على حياته إذا كانت هناك مـراقبة شديدة ولو تلاعب أثـناء هذه المراقبة فيكـون التلاعب نادراً والنادر لاحكم له على الإطلاق. كذلك الأمـر فى المرأة فإنها مؤتمنة على عرضها من قبل أهلها إن كانت غيـر متزوجة أو من زوجها إن كانت متزوجةً وتلاعبهـا بنفسها يكون بـنسبة ما هى عليـه مًن الحرية كما لايخفـى على كلّ مطلعٍ خبيرٍ.

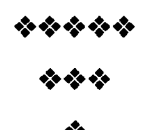
قضت شـريعة التـمدن الحديث عـلى كلّ من أراد الـزواج أن يختلـط بمن سيخطبهـا مدداً متفاوتةً مابين نصف سـنة أو سنة أوأكثر. فيجتمـعان بانفراد فى أيّ وقت شاؤا وأىّ محلٍ أرادو لا ثالث ولارقيب بينهما متنقلاً بين هذّه

وتلك منتزهات عمومية يتنقل من واحدة لاخرى وهو فى انبساط وسرور ولذّة نفسانية اتباعاً لقول من قال:ولذّة الهوى فى التنقل.

قالت تلك الشريعة:أن الزواج بهذه الطريقة ـ أى الاختلاط قبل الزواج ـ يساعد الخاطب على معرفة اخلاق الفتاة وآدابها. وقال الذين اختبروها: إنها طريقة عمياء وبئس واضعوها. لانها لاتوصل للمرغوب بل كثيراً ماجرّت للفساد وسوء التربية.

قل لى بحقك أيها القاريء ما ظنك بفتًى وفتاة فى ريعان الشبيبة يختلطان؟ وفى أى مكان يختليان؟ اظنك تعصمهما من أيّ فساد كان؟ مع علمك أنهما ليسا نبيين أوملكين بل كل منهما إنسان والإنسان مفطور بطبعه على الميل للخبائث والدنايا أوهو أقرب للشرّ منه إلى الخير كما حققته التجارب من قديم الزمان إلا من عصم الله إذا علمت ذلك لابدّ وأن تحكم أن وراء هذه الطريقة ـ أو بالحرى وراء الاختلاط ـ فساداً كثيراً ما يجرّ الإنسان للمكث فى الاختبار أشهراً وسنين متلاه عن الحكمة الشريفة للزواج بماهيأه إليه الاختلاط حتى يشيخ ويهرم فيعدل عن الزواج إما من نفسه اكتفاء بما أتاه من الفساد فى بحر ذاك الاختبار . وإما من الفتيات استنكافاً من أخذه على هذا الحال (وكثيراً ماهم ببلاد أوروبا تحت اسم الكهل العزب)ولايخفى ماينشأ عن ذلك من الأضرار الجسيمة التى تعود على الهيئة الاجتماعية وأخصها تقليل النسل كما هو حاصل بأوروبا الآن. وما منشأ ذلك إلا ما اقتضاه التمدن الحديث أو «الدين الجديد» الذى ما قام الآن إلا لهدْم أركان الإنسانية والآداب

إذا وعيت جميع ماتقدّم علمت أن التمدن الحديث ليس مفيداً للهيئة الاجتماعية والحكمة الإلاهية وسنن الفطرة التى جاءت بعدم مساواة المرأة للرجل وأمرت بأن يكون له عليها السيطرة والسلطان .



الفصل السابع

حسن الختام

هذا يا ابن آدم وحواء ما سطرته أناملى عن المرأة فألقيته بين يديك وضمنتُ لك به حسنَ الختام. إذ يقينى بذلك يقينى بما أوتيه كتابى هذا من عظيم البرهان الذى سلكت فيه مسلكاً سهلاً.

ولعمرى فلقد سلكت فيه مسلكاً يذلل الصعاب مما قيل فى المرأة بل يضيء طريق الحقّ للأعمى والبصير فيهدى كليهما سواء السبيل.

ولأتركنك الآن تناقش ذاكرتك الحساب فى ما داخلك من دقائق الأمور وعظيم الآيات والأحاديث وجليل الأقوال التى بدت لك من خلال أساطير هذا الكتاب حتى إذا أشكل لديك المعمى فلا جناح عليك إذا استأنفت قراءته مرةً أو مراراً حتى يتبين لك أنه الحقّ فتنصاع إليه وتصبح من الفائزين.

مع علمك أن الحق لم يتخذ كتابى هذا مسكناً له إلا لما آنسهُ فيه من المقدمات المحسوسة و البراهين الثابتة ثبوتاً طبيعياً وعقلياً ونقلياً مما يعزّز جانب الحقّ ويشاهده العيان فى كل زمان ومكان. على أن ذلك لايمنعنى من استسماح المرأة فى أن تختلس هنيهةً من وقتها وأن تنصتَ لما أقول:

لتعلمى أيتها المرأة اللطيفة أن الرجل هو ذاك الوحش الضارى الذى لا لطف ولاظرف له مادامت الطبيعة قد خصصته لمعامع النزاع والقتال . فتارةً تريه يطوى الأرض طياً فى سبيل الحصول على مايسدّ به رمقهُ فى هذه الحياة الدنيا. وأخرىٰ تجديه يتجشم أخطار الحرب والضرب والطعان والنزال رغبةً

فى اكتساب عـز أو فخر أوملك أو سلطان.و طـوراً تنظريه يهيم عـلى وجهه فى الفيافى والقفار قناعةً منه وزهداً فـى الحياة. وبالإجمال كلّ معيشته شقاء فى شقاء

أما أنت ففى تـعريف الشرائع والإنسانـية إنسان لطيف ظريـف خصصتك العناية الإلهـية للنسل كما أوردنا عن ذلك فى بـدء الفصل الأول ما أوردناه. ذلك الأمر الذى يحرّم أن تتجشمى مايتجشمه الرجل فى هذه الحياة الدنيا لأن لطفكِ وظرفـكِ وتخصيصكِ للنسل ممـا لايناسبه التعرّض للتـأثيرات الجوّية التى تتولد من دخولكِ مع الرجل فى ميدان تلك المشقات الدنيوية.

يموه عليكِ الرجـل فى بعض الأحيان فيريكِ إنكِ وهو سـيان. بناء على أن الطبيعـة لم تجعل بينكمـا فرقاً من قديم الزمان. فتنـطلى عليكِ الحيلـة فتهيج منكِ العواطف . وتحتـاطكِ من الغضب العواصف. فتنخـدعى بذلك وتميلى لما يشـتهيه ويرضـاه من تحريركِ التـحرير المطلـق الذى لايأتيه إلا لـغرض فى نفس يعقوب حتى إذا تمكن من مأربه وانقضى مافى نفسه انقلب شرّ انقلاب.

نعم ينقـلب عليك شرّ انقلاب لأنك بعـد ان تكونى منعكفة فى بـيتكِ آمنة على نـفسكِ وعرضكِ مـطمئنة عـلى حالك وأحوالـكِ غير مسئـولة عن أيّ شيء يـكونَ. تصبـحى لادار تجمـعكِ ولا أمان يـرافقكِ ولا اطمـئنان عـلى عيشكِ ولا عناية بـتربية أولادكِ بل تكونى على الدوام فى لـعب و لهوٍ مما يجرّ الرجل للافتتان بمالك من الجمال واللطف والـظرف والجاذبية الطبيعيّة فيأتى كل منكر مما تأباه الإنسانية والأديـان متقلباً من زهرة إلى زهرة ومن وردة إلى وردة يقطف هذه ويطفى تلك تاركا لكى العار والشنار.

أنتِ ذاك الشيء النفيس الذى يهتمّ به الإنسان فيضنّ به على الناس الحجب والأستار.

بل أنتِ الجوهرة الثمينة التى لايليق أن تتبادلها الأنظار خشيةً من الحسد محافظةً عليها من أيدى الفساق الأشرار .

بل أنت ذاك الملاك الذى أخفاه الله عن أعين الناسِ رفعةً له وإجلالاً لما خصته به العناية من عظيم الاحترام.

بل أنتِ سراج البيت وعماده فلو انشغلتِ بغيرما يقتضيه من الأشغال تساقط بنيانه وعاد عليكِ وعلى أهلك بالذلّ والهوان

على أن هذا المقام يلزمنى بأن لا اتوسع فى المجال بل اكتفى بالتنويه عما حواه كتابى هذا من العبر والآيات البينات الناطقات بصدق ماأقول. مردّداً عليكِ صدى ما حلَّ باختكِ وهى تلك المرأة الرومانية التى اتخذت السماء العليا مسكناً لها كى تلاحظ علينا الحركات والسكنات وتنادينا بقولها على الدوام:« يا قوم لقد وصلكم نبئى فمالكم عن التذكرة معرضون؟»

أجل فقد أعرضنا عن التذكرة فنبذنا ظهرياً ما جاءت به الأديان وماقضت به السنن الطبيعية ولم نعتبر كأننا والحيوانات العجم سواء بسواء. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

يا أيتها المرأة فوقى من رقدتكِ فلا تقدمى على عكس ما قضت به الطبيعة وأشارت إليه الإنسانية ودعى عنكِ غواية الشيطان. واتبعى ما أثبتهُ لكِ

بساطـع البرهان.واعـلمى إنكِ مـهما فقـت عدا وعلوت نـدا وبلغتِ مـجدا وبذلتِ جهداً فأنتِ أنت امرأة لاتبديل لكلماتى هذه مهما كنتِ وكان الزمان . بمعنى إنكِ لستِ كذاك الوحش الضارى الذى خصصته العناية بأعمالٍ دون تحملك إياها خرط القتاد .

وفي حُسن الختام أناديك يا أم الدنيا بما نادك الله به «وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبـرج الجاهلية الاولى » وبما نادتـك به المرأة الرومانية «لقـد وصلكي نبئى فما لكي عن التذكرة معرضة.

وأنادي الرجل وأقول: «لا عيب عليها في ذلك بك العيب كل العيب على رجالها الـلذين تسببـوا لها فى هذا الشـفاء بل هذا الاستعـباد» والله من وراء القصد ما أريد إلا الإصلاح ما ستطعت وما توفيقي إلا بالله.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الفصل الأول: المرأة من عهد الخليقة حتى حصول التفرق	١١
الفصل الثاني: المرأة وحالتها بعد التفرق	١٥
الفصل الثالث: الاستدلالات النظرية والعقلية والطبية	٢٧
الفصل الرابع: المرأة والحجاب	٣٧
الفصل الخامس: التمدن والاختلاط	٤١
الفصل السادس: قول صاحب الدار	٤٥
الفصل السابع: حسن الختام	٥٣

تقريب كتاب

المرأة

أمّ الدّنيا